الأيديولوجيّة الإنعزاليّة

جورج ناصيف

البحث في « الادب الانعزالي » يطرح ، منذ البداية اشكالية تاريخية تستدعي الوقوف عندها : هل تولد ، خلال العهد العثماني ، وعلى امتداد عصر النهضة الادبية الحديثة ، ما يمكن اعتباره ثقافة انعزالية خاصة ، منقطعة عن الثقافة العربية — الاسلامية السائدة في عموم المنطقة العربية او ان المشروع الاستعماري قد اطلق وتعهد تيارات ايديولوجية تقول بالانسلاخ عن الانتماء العربي وتتبرأ من الحضارة العربية وتنظّر للخصوصية اللبنانية ، عرفها لبنان في العشرينات وبعدها ثم عادت تنبعث مجددا خلال الحرب الاهلية اللبنانية ؟

بكلمة اخرى : هل هناك ادب انعزالي ، او ثمة ايديولوجية انعزالية ؟

لنسجل اولا ، بعض الوقائع التاريخية :

في ظل مجتمع اقطاعي ، زراعي ، حربي ، عاش سكان القرية الشرق اوسطية ، وهم غالبية سكان الامبراطورية العثمانية ، حياة انكفاء داخلية ، مطبوعة بالتخلف الاقتصادي على مستوى ادوات الانتاج وعلاقاته ، وبالمحافظة الدينية والاخلاقية ، معزولة عن تلقي تأثير التغيرات الخارجية ، « راكدة لا تتغير ، وممتنعة أمام التغييرات ومحاولات الاصلاح والثورات في القرنين التاسع عشر والعشرين ، حتى طبعت محافظتها نمط مجتمع الشرق الاوسط بأكمله حتى اليوم » (١) .

فالاقليات غير الاسلامية تنظم حياتها الدينية والاجتماعية والادارية والتعليمية والقانونية وفق قانون « الملل » وبصورة منفصلة الواحدة عن الاخرى مما وفر لها « استقلالا ذاتيا » بعيد المدى من كل النواحي . كان لها مؤسساتها الخاصة ، الاقتصادية والدينية والقضائية ، « وكانت كل طائفة مسؤولة عن اعالة مؤسساتها » (٢) . مما جعلها ، اضافة الى الطوائف الاسلامية غير السنية ، منكفئة على نفسها ، لا ترتبط بالسلطة المركزية او بملتزمي الضرائب الا بعلاقة هامشية ذات طابع قمعي استغلالي وبدت هذه الطوائف ، وكأنها تمتلك ثقافات خاصة بها . والواقع ان هذه الاخيرة هي تعبيرات ايديولوجية فلاحية عربية تلونت بألوان دينية — مذهبية ذات طابع معارض بشكل عام للسلطة المركزية القمعية » (٣) حتى ذهب فيليب حتي الى اعتبارها « بمثابة دولة مصغرة ضمن دولة كبيرة »(٤).

فهل كان لجؤ الجماعات اللبنانية الدينية ، والمسيحية تحديدا ، الى الانتظام في تكتلات واتحادات اجتماعية وسياسية وثقافية منظمة ومتماسكة (٥) كما يعلن جواد بولس ، مدخلا على عيشها تقاليد وعلاقات انسانية واجتماعية خاصة بها ، وانتاجها ثقافة مختلفة بالكلية عن الثقافة العربية — الاسلامية ؟

على المستوى الاجتماعي ، لم تكن المؤسسات والتقاليد ، والعلاقات الانسانية والاجتماعية السائدة في مقاطعة الجبل « لتختلف في شيء عنها في المناطق الاخرى من المشرق العربي — فهي تحمل جميعها سمات مجتمع عربي — اسلامي . فالعصبية بالمفهوم الخلدوني ، الانقسامات والتحالفات وفق الانتماءات التاريخية العربية الموروثة (القيسية واليمنية) ، طريقة استثمار الارض .. كلها سمات اقتصادية اجتماعية ، سياسية عربية اشتركت فيها كل العائلات صاحبة المقاطعات في الجبل دونما تمييز بين المسلمين ومسيحيين » (٦) .

ففي مناطق الجبل اللبناني ، « تتشابه اشكال الاجتماع البشري ، وردود الفعل الذهنية،وهي ناتجة عن الانتساب الى ثقافة واحدة» «فالنظام الواحد للقرابة ، واللغة الواحدة وهما يشكلان المقومات الاساسية للثقافة في المشرق العربي ، كانا في اساس الحياة الاجتماعية والعقلية لجميع الفلاحين في جبل لبنان » (٧) بحيث لا يصح الحديث عن مجتمعات منغلقة تماما ، متباينة في سلوكها الاجتماعي ، رغم العزلة النسبية التي كانت تعيشها في الريف الزراعي .

اما على صعيد النتاج الادبي لدى الطوائف المسيحية في هذه الحقبة الممتدة من القرن الخامس عشر حتى اواخر القرن التاسع عشر ، والذي تراوح بين الشعر والزجليات والتاريخ الكنسي والعام والتأليف النحوي ، فقد حمل الكثير من السمات العربية — الاسلامية ، سواء في النهج المستخدم ، او في الموضوعات التي طرقها ، او في المخزون الثقافي الذي يأبى ليكشف عنه .

فالبطريرك اسطفان الدويهي الاهدني،الذي عاش في القرن السابع عشر وتتلمذ في المعهد الماروني في روما ، والذي يشكل « نموذجا للمؤرخ في لبنان » (٨) ترسل خطى المؤرخين العرب في مؤلفه « تاريخ الازمنة » الذي شاءه تاريخا للطائفة المارونية فجاء تاريخا للمنطقة العربية ، حتى « وقع في اسر اصحاب الحوليات والاخبار فدون الحوادث كأنها أمور سنوية»(٩).

ولم يشكل الدويهي ظاهرة خاصة بين مؤرخي تلك الحقبة ، بل شاركه في منهجه لاحقا طنوس الشدياق (١٧٩٤ — ١٨٦١) الذي أرخ « للاسر المارونية والدرزية والمسلمة في لبنان ، الى جانب عدد من الكهنة والكتاب الذين احدث اهتمامهم الجديد باللغة العربية تأثيرا عميقا في حياتهم الفكرية ، فأدى ذلك قبل كل شيء الى اثارة وعيهم التاريخي ، مما دفع بعض الكهنة المثقفين الى دراسة آثار العرب (١٠) .

والمطران جرمانوس فرحات ، الذي يتخذه الدكتور نقولا زيادة نموذجا آخر على اللغوي الشاعر في تلك الحقبة ، « قال الشعر معربا ، بعدما كان زجلا سرياني الوزن » ، وهو الى ذلك « اول نصراني الف في النحو » (١١) وقد حمله حب العربية على «تعريب الانجيل مسجوعا (١٢) بل لعله أول من تصدى وقبل سواه » الى وضع معجم صغير ولكنه صحيح سماه الاعراب عن لسان الاعراب (١٣) والف في حلب مجمعا علميا يعنى اعضاؤه بالترجمة عن اللغات الاجنبية ، وفي طليعتها اللاتينية والايطالية .

واذا دخلنا القرن الثامن عشر لنتوقف أمام زجليات الاسقف جبرايل ابن القلاعي الذي نظم الحوادث التي عرفتها المنطقة زجلا وأمام شاعري

بلاط الامير بشير الشهابي المتعاقبين ، نقولا الترك وبطرس كرامة ، طلعنا بخلاصة ان الثقافة التي انتجتها الطوائف المسيحية والمارونية تخصيصا على ضالتها وتلونها بالطابع الديني الاكليركي ، « تشكل جزءا لا يتجزأ من الثقافة السائدة في المنطقة العربية وبالتحديد السائدة في المشرق العربي » (١٤) .

هذا من حيث ثقافة « الملة » المارونية (والتي اخلت مكانها لتعبير « امة » في لغة المستشرقين الاجانب كما في لغة المراسلات الدبلوماسية في عصر التدخل الاستعماري في المشرق) .

اما من حيث الانتاج الادبي الخصب الذي جرى على اقلام المسحيين من ادباء النهضة الكبار (أمين الريحاني ، ميخائيل نعيمة ، مارون عبود ، رئيف خوري ، جبران خليل جبران ، الياس أبو شبكة ، شفيق المعلوف وسواهم) فان قراءة ، ولو عجلي له ، تجعلنا نقف على المضمون الديمقراطي الذي يختزنه ، متجليا في خمس سمات مميزة يتسم بها مجمل هذا النتاج ، على تفاوت بين كاتب وآخر :

١ ــ عدائيته حيال الاستعمار الغربي ، كناهب للثورة القومية ، وكذلك حيال مادية الغرب ولا اخلاقيته .

٢ ــ ثورته على الاقطاع بوصفه يقع في اساس التخلف الاقتصادي الاجتماعي وعلى التقاليد الاجتماعية التي تعيق حركة التطور .

٣ ــ تمرده على الكهنوت ، كحليف للنظام الاقطاعي ، ودعوته اللجوجة الى انسحاب رجال الدين من نطاق العمل السياسي ، وانخراطهم في مجال الالتزام الاجتماعي ، الى جانب المستضعفين والفقراء والعطاش الى الرحمة والعدل .

٤ ــ تحسسه اوضاع البؤس التي يعيشها المستغلون (بالفتح) وانجذابه نحو الشعارات التي وفدت الينا مع الثورة الفرنسية ، والقائلة بالحرية والمساواة والاخاء بين بني البشر .

٥ ــ اعلانه انتماء الشعب اللبناني الى العروبة ، حضارة وتراثا ورباطا سياسيا واشتراكا في المصير الواحد ، ومناهضة لاية دعوة تقول بالانعزال عن العالم العربي سياسيا ، أو تتبرأ من الحضارة العربية انتماء .

نحن اذن امام ادب نهوضي غلبت عليه الاتجاهات الديمقراطية العلمانية غلبة كاسحة يدعو رواده الى قيام مجتمع يبنى على «قاعدة المواطنية لا الطائفية ، على قاعدة القومية العلمانية الجامعة لشتات الامة » (١٥) مع ما يمثله هذا الموقف من قطع واضح مع أي اتجاه انعزالي او فاشي او طائفي عصبوي .

اما النتاج « الادبي » الذي جاءت به الحرب الاهلية ، باقلام كتاب انعزاليين ، فهو من الضالة والابتذال والفجاجة السياسية الصارخة بحيث امتنع كافة المشتغلين في النقد الادبي ، عن اعتباره ادبا يستحق الدراسة او يستأهل وقفة تقييم جدية ويجعلنا نتعاطى معه بوصفه لونا من الوان المناشير السياسية الرخيصة ، والمفتقرة الى الحد الادنى من الابداع الادبي (١٦) .

من خلال هذا الاستعراض ، وقد شئناه مدخلا يعيننا على تحديد دقيق للموضوع قيد البحث ، نبلغ الخلاصة التالية :

ان الحصيلة العامة للادب اللبناني في تجلياته التاريخية الاولى كما في تعبيراته الحديثة لا تبيح الحديث عن ادب انعزالي ذى شأن ، وتلزمنا البحث في نطاق آخر نراه ادنى الى المقاصد التي يتطلع اليها المؤتمر ، عنينا به : الايديولوجية الانعزالية ، في مفاهيمها وسماتها وتعبيرها السياسي وصولا الى السجال الاولي مع مفاتيحها الرئيسية .

ملاحظات منهجية :

الايديولوجيا ، تعريفا ، هي قراءة مضللة للواقع ، وعي مزيف يحجب المصالح المادية ، ويستبدل بها مصالح وهمية . وهي على هذا الصعيد اذا ملكت وعي الجماهير ، تحولت الى قوة مادية حقيقية يحذر ويلهام رايش من الاستهانة بها ، « بعدما اتضح انها أقوى ، في مرحلتنا التاريخية الراهنة من ضغط الحاجة المادية ، ولولا ذلك لما كان هتلر وتيسن هما اللذين يتربعان على سدة السلطة الآن «وما يصح على الجماهير الالمانية المضللة بفعل الايديولوجية النازية يصح في وجوه عديدة منه على الجماهير المسيحية التي تلعب الايديولوجية الانعزالية دور الحاجب لمصالحها الفعلية (١٧) » .

ولكن لا بد لنا ، قبل العرض التفصيلي للمفاهيم التي تشكل مفاصل الايديولوجية الانعزالية من بعض الملاحظات المنهجية التي تشكل ضابطا نظريا وتاريخيا للنص :

١ ــ السؤال الاول الذي يستدعي اجابة هو : اذا كانت كل ايديولوجية هي ايديولوجية طبقة بعينها ، فكيف يصح الحديث عن « ايدولوجية انعزالية » بشكل عام ، كما لو ان الجمهور الانعزالي يشكل طبقة متجانسة ؟

في الاجابة ، نؤكد مسبقا ان الايديولوجية الانعزالية هي في الواقع ابديولوجية قسم من القيادة الطبقية والسياسية داخل الطائفة المارونية ، وقد باتت معممة على سائر الطبقات والشرائح التي تجتمع في الطائفة . وتعميم هذه الايديولوجية هو الذي يشكل اساس الهيمنة التي تمارسها هذه القيادة الطبقية على عموم ابناء الطائفة ، خصوصا وانها تمتلك جهازا فعالا من المؤسسات الاكليركية والتربوية والاعلامية تؤمن ضخ هذه الايديولوجية وشيوعها .

٢ ــ ان المفاهيم الايديولوجية الانعزالية لم تكن دائما واحدة خلال المراحل التاريخية الممتدة منذ الربع الاول من القرن الحالي وحتى اليوم .

ففي كل مرحلة تاريخية ، كانت القيادة الطبقية المهيمنة داخل الطائفة المارونية تصوغ مفاهيم ايديولوجية معينة ، تخدم مصالح هذه الطبقة في هذه المرحلة المحددة زمنيا . واذا كنا قد اضطررنا الى عرض المفاهيم الانعزالية بشكل مجرد ، ودون ادراجها في سياق نشأتها التاريخية ، ودون تمييز بين ما طغى من عناصرها في مرحلة ما ثم انحسر في مرحلة لاحقة ، كالتمييز الذي يمكن اعتماده مثلا بين ايديولوجية ما قبل الحرب الاهلية ، وايديولوجية الحرب نفسها ، فان ذلك لا يلغي حقيقة ان بعض هذه المفاهيم ، أو بعض عناصرها على وجه التحديد ، قد جرى تضخيمه خلال الحرب على حساب بعضها الآخر . فالمفهوم الذي يعتبر لبنان منتميا الى الحضارة الفينيقية والمتوسطية كان تعبيرا عن حاجة البرجوازية التجارية في العشرينات وما بعدها ، الى ايديولوجية تغطي عملية نهبها للمنطقة العربية وغزوها الاسواق . غير ان المفهوم قد سحب من التداول خلال الحرب لصالح مفهوم « لبنان المردة » ، اي لبنان الذي يتحصن اهله في الجبال في وجه الطغيان الاكثري الاسلامي ويشرعون في مقاومته دفاعا عن وجودهم وتمايزهم وحريتهم الدينية والسياسية . « لبنان الفينيقي » هو

لبنان التاجر ، المنفتح اقتصاديا ، أما « لبنان المردة » فهو لبنان المنعزل سياسيا ، المقاتل دفاعا عن خصوصيته .

وما يصح على هذين المفهومين ، يصح على التعاطي الايديولوجي مع الاسلام والمسلمين ، حيث ان الموقف العنصري من المسلمين لا علاقة له بمنطق « لبنان الفينيقي » ، الذي يستوعب الوجود الاسلامي ويحدد وظيفته ، بل بمنطق « لبنان المردة » ، القائم اساسا ضد المسلمين ، وبالصراع معهم . لذلك لم يكن غريبا ان يسود المفهوم العنصري خلال الحرب بالذات ، بينما كان خافتا أو ضامرا في الحقبة السابقة عليها .

٣ ــ اذا كانت الايديولوجيا تزور الواقع ، وتضخمه ، غير أنها لا تختلق هذا الواقع . لا تنطلق من عدم او فراغ . بل تتكيء على عناصر متوافرة في هذا الواقع نفسه ، لتلجأ الى تضخيمها ، وعلى حساب عناصر اخرى ، وتمنحها تفسيرا مزورا .

وبهذا المعنى فان المفاهيم الايديولوجية الانعزالية ليست كلها ايديولوجية ، تزويرية . فالقول بلبنان ملجأ الاقليات الهاربة من الطغيان الاكثري اعلان عن واقع تاريخي صحيح ، قال به ، بين من قال « القائد الشهيد كمال جنبلاط . غير ان الايديولوجية الانعزالية تنطلق منه نحو مشروع سياسي ، وتبحث عن كيفية تغليب أقلية على سائر المواطنين ، عوض ان تبحث في كيفية تنظيم التعايش بين هذه الاقليات في اطار نظام ديمقراطي ، علماني .

والقول ايضا بان لا سبيل الى الفصل بين العروبة والاسلام ليس نتاج الايديولوجية الانعزالية ، بقدر ما هو نتاج الفكر العربي الاسلامي السياسي الذي لم يعمد الى مثل هذا الفصل ، بل اكد الوحدة العضوية بين الطرفين ، ما خلا قلة قليلة من المفكرين المسلمين ، تشكل استثناء لا يعتدّ به كثيرا .

انطلاقا من هذه الملاحظات ، نقدم على قراءة الايديولوجية الانعزالية، كما تقدّم نفسها .

ـ أ ــ مفاهيم الايديولوجية الانعزالية

١ ــ لبنان الفينيقي :

لبنان ، على المستوى الحضاري لا ينتمي الى الحضارة العربية ، حيث ان الفتح العربي جاءه غازيا يبسط احتلالا عسكريا ويتطلع الى قطع لبنان عن جذوره الحضارية الممتدة في التاريخ السحيق حتى الفينيقيين ، واخضاعه لعملية افقار حضارية . « فالفينيقيون هم اجدادنا ، والشعب اللبناني استمر وجوده فوق التربة اللبنانية قبل التبشير الماروني بعشرات الالوف من السنين . هو الشعب الفينيقي اللبناني الذي يعتبر شعبا أصيلا في لبنان » (١٨) « والشعب الماروني فينيقي يعيش فوق التربة اللبنانية منذ آلاف السنين » (١٩) .

يأخذ هذا المنطق نقطة انطلاق له من رفض الواقعة التاريخية القائلة بان الجزيرة العربية هي مهد الشعوب السامية ، معتبرا اياها « هراء وافتراضا محضا اطلقه بعض العلماء المشتغلين بالتاريخ، على انه افتراض محض لا حقيقة ثابتة . وقد انكر انطباقه على الحقيقة كثيرون من العلماء» (٢٠).

الشعب اللبناني ، اذن ، اقدم من السلالات السامية التي وفدت من الجزيرة، بل هو سليل الشعب الفينيقي اللبناني والشعب الارامي السوري وشعوب البحر » (٢١) وهي شعوب أصلية استوطنت لبنان ولم تفد اليه من الجزيرة .

أما الفتح العربي فهو احتلال محض لم يمتلك تأثيرا فعليا على الحضارة الاصلية لاهل البلاد « فالتحولات الدينية واللغوية التي حصلت عند الفتح سطحية ومتقلبة ، ولم تغير أعماق السكان الاصليين ، فالصفات الجوهرية التي كيّفها الوسط الطبيعي للفينيقيين القدماء بقيت كصفات الشعوب الشرقية الاخرى متواصلة بعد الفتح العربي الاسلامي » (٢٢) مستنتجا من ذلك انه « بسبب تغيير المظهر الخارجي في اللغة والدين ، تكوّن اعتقاد بان الفينيقيين والآراميين والبابليين وغيرهم قد اضمحلوا بعد الفتح العربي. أما الحقيقة فهي ان هذه الشعوب المختلفة بقيت في بلادها ، ودامت لها طباعها الجوهرية الاساسية » (٢٣) .

يتأسس على ذلك ان الموارنة يحتفظون في شخصيتهم الجماعية ، بالطباع الفينيقية سواء على مستوى العناصر المكونة للنفسية المارونية او على مستوى السلوك في تحصيل المعاش، فقد ورثوا عن الفينيقيين كل شيء: ورثوا روحا جبارة ، وثابة قوية الشكيمة في خرق الاخطار (٢٤) ومرونة غريبة ودماثة اخلاق عجيبة ناتجة عن الروح الانسانية الاصلية التي تحلى بها الفينيقيون ، روح المحبة (٢٥) وورثوا ايضا دأبا على العمل وبراعة وحذقا فيه الى حد العبقرية . وهي من ابرز الصفات الفينيقية (٢٦) كل ذلك الى جانب اتقان اللغات بوصفها اساسا لا غنى عنه لمواصلة « مهمة الفينيقيين القائمة بالتقريب بين الشعوب » (٢٧) .

لكن هذا الانتماء الى الحضارة الفينيقية لا يقصد له ان ينتهي عند هذه المحطة بل ان يتجاوزها نحو محطة هي المستقر الاخير للفكر الايديولوجي الانعزالي في مضمار التاريخ والحضارة : الحضارة المتوسطية التي كان أوّل من طوّرها الفيلسوف اللبناني رينيه حبشي .

ولسنا نجد أفضل من الخاتمة التي اختارها الاب بطرس ضو لكتابه تدليلا على احداث النقلة من القول بالانتماء الى الحضارة الفينيقية الى القول بالحضارة المتوسطية : « ان حضارتنا حضارة متوسطية عالمية ، بسبب موقعنا الجغرافي وتركيبنا الاثني وانفتاحنا على العالم . فنحن شعب متوسطي منذ أقدم الاجيال . وجوهر هذه الحضارة ومرتكزاتها وعناصر تركيبها وتعبيرها فينيقية لبنانية ومتوسطية عالمية معا وفي هذا المركب الرائع اللبناني الانساني ، دخلت العربية منذ مدة كجزء من الخطوط والملامح » (٢٨) .

فالمتوسطية استيعاب للحضارة الفينيقية وسواها من الحضارات التي عرفها ساحل المتوسط : اطار يضم اليه هذه الحضارات بحيث يمحو الطابع العربي عنها ويذيبه في هذا الكل ، نوع من الكوسموبوليتية الحضارية توفر اساسا للمركنتيلية الحديثة ، ولنفسية التاجر الوسيط الذي يتمثل بالتجار الفينيقيين الذين، على ماذهبت اليه الاساطير اليونانية. فقد تاجروا بكل شيء . تاجروا بالرق ، رجالا ونساء واطفالا ، اشتروهم أو خطفوهم »(٢٩)وهي تشكل،في الايديولوجية الانعزالية ، بديلا عن الحضارة العربية ، اذ « تقدم الحل الوحيد الصحيح للهوية الحضارية للبنان والعالم العربي . انها المخرج من ازمة الحضارة العربية ــ الاسلامية ، وهي المجال المفتوح أمام قيام اللبنانيين عامة ، والمسيحيين خاصة ، برسالتهم التاريخية » (٣٠) وهي اخيرا ، ولدى ميشال شيحا ، المستقر الحضاري الوحيد الذي « يجد فيه لبنان والعالم العربي توازنه » .

٢ ــ لبنان ــ الملجأ :

اذا كان لبنان فينيقيا اولا ، كما تعلن الايديولوجية الانعزالية، فهو

ملجأ الاقليات الهاربة من الطغيان الديني والعرقي ، ثانيا . فينيقي على مستوى الانتماء الحضاري ، وملجأ على مستوى التاريخ السياسي ، والفكر السياسي .

نظرية لبنان ــ الملجأ التي كان الاب اليسوعي هنري لامنس أول من اطلقها ، تنطلق من مقدمتين :

ــ ان تاريخ المنطقة العربية هوفي خطه العام ، تاريخ اضطهاد الاكثرية السنية الحاكمة للاقليات العرقية والدينية وقهرها ، باقصائها عن السلطة السياسية ، وتقييد حريتها في ممارسة معتقداتها وشعائرها الدينية . فالتمايز الديني هو الاساس في الصراع والمفتاح الذي يفسر التاريخ السياسي للمنطقة .

٢ ــ ان الفتوحات العربية ترتد في حقيقتها الاخيرة الى هجوم البداوة على المنبسطات الحضارية التي عرفتها فينيقيا الساحلية (فلسطين، لبنان ، سوريا) حيث بلغ التقدم الحضاري مبلغا لم يعرفه العرب البدو الوافدون على شكل غزوات بربرية تهديمية لمعالم الحضارة ، وعدائية حيالها .

انطلاقا من هاتين المقدمتين تذهب النظرية الى القول ان لبنان وجباله تحديدا شكلت ملجأ لهذه الاقليات الهاربة من الطغيان بحيث بات تاريخ لبنان القديم ، وحتى الحديث منه ، يُردُّ الى تاريخ هذا الجبل المتأهب بفعل مناعته وتحصنه الجغرافي لاستقبال كل مطرود وملهوف وطامع في الحرية والكرامة .

فالجبل ، هو « شرط وجود هذا البلد وهو ما اعطاه الملامح الاساسية لتفرده ، وما تحكم بوجوده السياسي والعسكري ومنحه الاستقلال ولكنه كتطور طبيعي اصبح فوق ذلك ملجأ دينيا . تحول جبل لبنان الى ملجأ الاقليات الباحثة عن الحرية والامن على اختلاف انواعها» (٣١) وصولا الى القول بانه « اذا استثنينا مسائل الدين والجنس واللغة والاسم التي تعتبر ثانوية ، فتاريخ لبنان هو شخصيته جغرافية جماعية » (٣٢) .

وتتردد نظرية الجبل ــ الملجأ في مؤلفات فيليب حتي حيث ان لبنان « جبل بكل ما في الكلمة من معنى » وهو بفعل ذلك شكل « ملجأ عبر الاجيال لكل اصحاب عقيدة تخالف عقيدة الجماعة التي يعايشونها وحمى لجماعات من الاقليات المضطهدة » (٣٣) .

وترى كافة الادبيات الصادرة عن الجبهة « اللبنانية » كما توجزها دراسات جامعة الروح القدس في الكسليك ، « ان ما ينقص الجميع ويفتقرون اليهو هذا اللبنان الذي بفضل موقعه وطبيعته استطاع ان يحضن كل الذين على مر التاريخ قد اضطهدوا بسبب المعتقد الديني وان يؤمن لهم الحرية » (٣٤) .

الجبل ــ الملجأ ، اذن ، نوع من الحاجز الجغرافي اولا والحضاري والسياسي استطرادا في وجه الحضارة العربية ، والانتماء السياسي الى المحيط العربي . انه تعبير عن تلك القطيعة المطلوبة مع هذا التراث العربي . انه تعبير عن ذلك السد الذي يحمي « خصوصية اللبناني » وبحصنه ضد الذوبان في المحيط الاكثري الاسلامي . الجبل مكان ينسحب اليه الانعزالي كموقع للانكفاء ، أو محطة اجتماع وعيش للراغبين في التفرد والتعالي .

وليس من قبيل الصدفة ان تقابل الايديولوجية الانعزالية مفهوم الصحراء بمفهوم الجبل . فالصحراء امتداد اغبر لامتناهٍ ، لون من المد العددي الكمي ، تعبير عن الفقر والجفاف والعقم والتفاهة في مواجهة جبل مأهول خصب كثيف في عمقه الحضاري، تقطنه مجموعات عريقة ومتفوقة. الجبل انتخاب واصطفاء فيما الصحراء كثرة ورتابة .

وعندما تضع الايديولوجية الانعزالية الجبل في مواجهة الصحراء فهي لا تسوره في المطلق . تحصنه من جانب لتفتحه على آخر : تحصنه ضد الصحراء ، وتفتحه على البحر . على الحضارة المتوسطية ، على الغرب اخيرا .

ولسنا في ذلك لنستقرىء بل نقرأ ما افصح عنه فيليب حتي : « لبنان يتميز بجباله تكوين جبال لبنان الطبيعي يجعل اتجاهه نحو بلدان الغرب» (٣٥) .

ينغلق على العرب ، وينفتح على الغرب . بين الصحراء والبحر يختار البحر فهو فينيقي اساسا ، وضارب في الماء . يمعن في البحر ويدعو اليه البحر . اذا طلب رزقا حول الجبل جسرا بين الصحراء والماء واذا دعي ليسفك دما تعبيرا عن انتماء رفع الجبل حاجزا . تلك هي المعادلة .

أما قال شارل مالك مرة « ان جبل لبنان يعني تاريخا وكيانا ، مناعة وفصلا بالنسبة للصحراء، واتجاها وانطلاقا نحو البحر الابيض المتوسط» (٣٦)؟

٣ ــ الاسلام والمسلمون :

عندما ترى الايديولوجية الانعزالية في الحكم الاسلامي في عصوره المتعاقبة ، اداة قمعية تتطلع الى ضرب معالم الحضارة المسيحية التي يجسدها الموارنة الفينيقيون ، وعندما تسجل باستعلاء مظاهر التخلف العربي على شتى المستويات ، فهي لا تفعل ذلك انطلاقا من محاكمة تاريخية لانظمة الحكم التي تعاقبت على المنطقة بدءا بالامويين والعباسيين وانتهاء بالعصور الحديثة بل تتوقف عند الدين الاسلامي معتبرة اياه المصدر الاول للقمع والتخلف والعائق الرئيسي امام تطور هذه المجتمعات .

فالاسلام ، كنصوص قرآنية ، « ينمي روح العداوة والعنصرية وروح التسلط والتعالي ومركبات الكبرياء والتسامي ، وهو بدافع عدواني مقدس، يبرر الاضطهاد الشرس الذي يمس الحرية الانسانية في اقدس خيار لها » (٣٧) .

أما المسلمون تاريخيا فقد اخفقوا في تأسيس حضارة ذات وجه انساني ، « لان البنية الاثنية الاسلامية العربية ، اي بنية اهل السهول والبوادي تغلب عليها روح الترحال والغزو والتهديم والتدمير » (٣٨) .

وعندما تكون الحضارة الاسلامية على هذا القدر من الانغلاق والتعالي ، مشبعة بروح التسلط ، يستحيل عليها اذا ذاك ان تتعايش مع الحضارات الاخرى ، « فالتجارب التاريخية دلت على ان الحضارتين ، المسيحية والاسلامية تصادمتا دوما ولم تتحاورا ، ذلك ان الحضارة الاسلامية استعلائية لا تقبل باحترام الحضارات الاخرى . فنية الاخذ والعطاء غير ممكنة لدى الاسلام » (٣٩) الامر الذي يجعل « من الصعوبة البالغة تصور شعب متعدد الاديان في لبنان باعتباره أمة » (٤٠) .

المسلم اذن كائن منغلق على المستوى الذهني ، غير مؤهل للحوار ، ولا للنزول عند موجبات التعايش المتكافيء مع ابناء المذاهب الاخرى، سواء بفعل الذهنية الاكتفائية ، العدوانية التي ينميها القرآن لديه ، أو بفعل النواهي القرآنية التي تحظر عليه العيش تحت وصاية ذمي او سلطته .

فالاسلام دين ودولة ، والمسلم مدعو شرعا الى بناء دولة الاسلام ،

وان قصر المسلمون عنها في ظروف معينة فليس ذلك تخليا عن المطمع النهائي ، بل ارتقابا للفرص المواتية . والمسلم الى ذلك ، يوالي المسلم فقط ، ويرتبط به برباط الدين الواحد مما يضعف الرباط القومي أو الاجتماعي الذي يشده الى مواطني بلده من ابناء الطوائف الاخرى، ويجعله دائم التطلع « خارج الحدود » الى حيث اخوته في الدين .

هذه التربية الدينية التي يشب عليها المسلم تجعله موضوعيا ، في حكم الخائن بالقوة للنصارى من ابناء وطنه ، وتبيح للآخرين التعاطي معه بوصفه عنصرا لا يؤمن على مصير وطني ، ما دام مشدود الولاء الى ما يتجاوز حدود الوطن . انه « خائن بالقوة » وخبيث ، بالمعنيين السياسي والاخلاقي يتنازل ظاهرا عن مطمعه في اقامة الحكم الاسلامي فيما يستعد باطنا له بالانفس والعدة .

ولم تترك الايديولوجية الانعزالية هذا الحكم القيمي مضمرا ، بل افصحت عنه بجلاء في مختلف ادبياتها ، واخصها ورقة العمل التي قدمها حزب الكتائب الى خلوة سيدة البير في ٢١ كانون الثاني ١٩٧٧ والقائلة : « تلك هي العلة الملموسة في بنيتنا الوطنية ، وفي صيغتنا اللبنانية : عدم ولاء اكثرية طائفية معينة للبنان الوطن والكيان ، الدولة والنظام ، وقابليتها للتحرك من الداخل ضد الوطن والكيان والدولة والنظام كليا . وفي كل حال ، عدم استعدادها للدفاع عنها بوجه اي خطر أو عدوان يمت بصلة ولو ظاهرية الى العروبة والاسلام » (٤١) في حين « ان الفريق المسيحي يعلن ولاءه المطلق للبنان ، ويلتزم بمنطوق الميثاق الوطني القاضي بأن يتخلى المسيحيون عن الحماية الاجنبية » (٤٢) .

٤ ــ العروبة :

اذا كان الاسلام ، كدين يشكل تهديدا للوجود المسيحي ، فهل تشكل العروبة خلاصا لهذا الوجود ؟

الايديولوجية الانعزالية تملك جوابا قاطعا . لا

« فالعروبة ، هي الاسلام والمسلم هو العروبة » (٤٣) ولمزيد من التأكيد « فلا عروبة لولا الاسلام ولا استمرار للعروبة لولا الاسلام » (٤٤) .

وليست هذه العلاقة بين الطرفين نتائج ظروف تاريخية معينة ، بحيث يمكن توقع انفكاكها عند زوال هذه الظروف « فهي ليست عرضية ، ولا سطحية ولا ظرفية . علاقتهما عضوية مستمرة . انها علاقة العلة بالمعلول » (٤٥) .

كانت اسلامية لدى مفكري القرن التاسع عشر ، واستمرت اسلامية لدى الكثرة الغالبة من قادة التيارات القومية المعاصرة . لذلك فالقومية العربية ليست مرحلة متقدمة على الجامعة الاسلامية، كما طرحها المفكرون المسلمون ابان الحكم العثماني ، بل هي نفسها الجامعة الاسلامية ، مموهة بألفاظية قومية . القومية العربية هي الشكل الحديث لانبعاث الاسلام ، التعبير السياسي الراهن عن العصبية الدينية ، فهي بالتالي « اسلامية المنطلق ، والهدف ، وترمي الى اقامة مجتمع سياسي يتولى القرآن رعايته » (٤٦) .

أما الحجة القائلة بان المسيحيين كانوا روادا للقومية العربية في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ومؤسسي الحركات السياسية القومية في النصف الاول من القرن العشرين فتردها الايديولوجية الانعزالية بالقول ان التفريق النظري الذي دعا اليه المسيحيون بين العروبة والاسلام ، لم تأخذ به الجماهير الاسلامية ، ولا قال به المفكرون القوميون المسلمون وان عودة المسلمين الى قيادة حركة الانبعاث القومي بعد ١٩٠٩ اعاد اليها الصبغة الدينية ووحد مجددا بينها وبين الدين الاسلامي ، مما يقطع بان الفكر الاسلامي ، لا يميز بين الانتمائين ، ولا يتصور قومية عربية بلا مضمون ديني .

٥ ــ قانون الاكثرية والاقلية :

عن اختلاط العروبة بالاسلام ، وعدم ولائية المسلم اللبناني للكيان ، واستقوائه الدائم بالمحيط الاكثري الاسلامي ، تتأتى محصلة تشكل واحدة من الثوابت في الايديولوجية الانعزالية : ان المسيحيين يعيشون في خوف دائم من الطغيان لمجرد انهم اقلية في محيط اكثرية مختلفة دينا . فالاكثرية ، بطبعها مستبدة . واستبدادها عنصر ملازم لكونها اكثرية ، مهما حاولت ان تنهج سبيل الديمقراطية . فمن الثوابت التاريخية والسوسيولوجية الملازمة لطبيعة المنطقة العربية واقع « الاكثرية الاسلامية الذي يشكل نوعا » من الطغيان العددي والفكري والثقافي على ما عداه من حضارات وثقافات وتراثات » (٤٧) .

ومهما فعلت الاكثرية الاسلامية لطمأنة الاقليات ، ومهما اعلن الاسلام اللبناني على سبيل التخصيص ، ايمانه بنهائية الكيان اللبناني ، ورفضه اي لون من الوان الوحدة العربية ، فان الايديولوجية الانعزالية تعتبر الازمة قائمة لانه « اذا قيل بان استقلال لبنان الذي طالما اقلق بال المسيحيين واقع قائم ، ونهائي ، ويؤمن به المسلمون قدر ايمان اخوانهم المسيحيين فدلالة على ان المسلمين ما ادركوا بعد حقيقة القلق المسيحي من هذا القبيل ، انه خوف من طغيان معين ، طغيان سياسي ، طغيان حضارة على حضارة ، طغيان فكر على فكر ، طغيان عددي » (٤٨) .

أما كيف الخروج من هذه الدائرة المقفلة ، فان المشروع السياسي الذي يطرحه التيار الانعزالي ، كفيل بتقديم الجواب : ان تحكم الاقلية الاكثرية حكما استبداديا يلغي فعالية الاكثرية ، فتطمئن عندها . .

٦ ــ ثلاثية لبنان ــ المارونية ــ الغرب :

في مقابل الرأي في العروبة والاسلام ، دينا وتاريخا سياسيا ، كيف ترى الايديولوجية الانعزالية الى المسيحية والغرب ولبنان ، والعلاقة بين الاطراف الثلاثة ؟

ثمة معادلة ثلاثية في الفكر الانعزالي حول هذه المسألة ، مترابطة ومتدرجة ، ويمكن ايجازها تحت العناوين التالية :

ــ لبنان نتاج ماروني ، من حيث الواقع التاريخي .
ــ المسيحية اللبنانية تنتمي الى الحضارة الغربية .
ــ لبنان جزء من العالم الغربي .

ا ــ لبنان نتاج ماروني :

لعل هذا المفهوم يقع في صلب الايديولوجية الانعزالية ، بل يشكل مفصلها الرئيسي لذلك لم يكن عبثا ان يأتي عليه المفكرون الانعزاليون جميعا ، ومن جوانبه كلها .

فؤاد افرام البستاني ، يقيم تلازما لا ينفصم بين المارونية ولبنان فالمارونية بنت لبنان ، ولبنان في الكثير من مزاياه وخصائصه من صنع المارونية . عملت في تطوره حتى عرف بها وعرفت به فلا وطن لها سواه ، ولا كيان لها بدونه » (٤٩) .

وبطرس ضو يجزم بان « لبنان المستقل من صنع الموارنة المردة »(٥٠) والاب بولس نعمان يذكر « انه حدث يوم من التاريخ كانت فيه دعوة المارونية من دعوة الجبل ، فكانت الجمهورية اللبنانية » (٥١) معتبرا الكنيسة المارونية بمثابة الام لهذه الجمهورية « عملت الكنيسة المارونية كام طيلة اجيال واجيال فلكي تحل الجمهورية اللبنانية محلها في القيادة الوطنية » (٥٢) .

وامين ناجي يرى ان اي خط بياني يرسمه المؤرخ منذ الفتح العربي للمشرق ، وحتى قيام لبنان الكبير يظهر بوضوح « سعي المسيحيين والموارنة خصوصا ، في ان يكون لهم وطن يشكل كيانا مستقلا لا يعيشون فيه اهل ذمة » (٥٣) .

لكن شارل مالك يبقى خير من صاغ هذا المفهوم على الاطلاق ، ومنحه ترجمته العملية : « كلنا مسؤولون عن لبنان غير ان الموارنة مسؤولون بشكل خاص ، وفي الدرجة الاولى ، مصير لبنان يقع في الدرجة الاولى على عاتق الموارنة . اذا ازدهر لبنان وشمخ وملىء سلاما وثقة ومحبة فلا اقبل بأية حال ان تدعي الفضل في ذلك اية طائفة اخرى ، غير الموارنة . هذا مجد المارونية وفخرها : ان مصير لبنان وجودا وكيفا ، منوط بها اكثر من غيرها » (٥٤) .

ولا يقتصر الامر في الايديولوجية الانعزالية ، على القول بلبنان وطنا للمارونية بامتياز ، يتحد مصيرها بمصيره ، بل يتجاوزه الى اعتبار لبنان موئلا لجميع نصارى الشرق ووطنا روحيا لهم ، بل ودعوة مفتوحة لهم ليؤسسوا وطنا على غراره لو ملكت اياديهم .

ففي التاريخ القديم « ان الطائفة المارونية شعب مختار اصطفاه الله والجاه الى مناعة جبل لبنان حيث اوكل اليه المحافظة على الايمان الصحيح وكرامة المسيحيين في الشرق » (٥٥) .

وفي التاريخ الحديث ، « ان لبنان من مدعمات وجوده انه الوطن الروحي لجميع الشعوب المسيحية المبعثرة في رحاب هذا الشرق » (٥٦) بحيث يصبح وطنا لثلاثة : « للبنانيين المقيمين فيه ، وللبنانيين المتحدرين من اصل لبناني وللمسيحيين العائشين في العالم الاسلامي المحيط » (٥٧) .

ب ــ المسيحية اللبنانية :

جزء من الحضارة الغربية :

الوجه الثاني لقول الايديولوجية الانعزالية بتوحد الحضارة العربية مع الاسلام،هو قولها بانتماء المسيحية اللبنانية انتماء عضويا الى الحضارة الغربية في المذهب كما في المعتقدات والميول واساليب العيش ، بما يجعل المسيحيين المشارقة نوعا من الجالية الغربية وسط شرق متخلف فالمسيحية اللبنانية ، اولا هي « النسغ الذي تمر عبره الحضارة الغربية الى داخل العالمين العربي والاسلامي (٥٨).نظرا لان « حضارة الغرب هي حضارتنا وهذا ما يشكل جزءا من الحقيقة اللبنانية فعندما نقول بان لبنان ملتقى الحضارتين الاسلامية والمسيحية ، فلا نفهم لماذا يجب ان ننسلخ عن حضارتنا لكي نؤكد انتماءنا الى هذه المنطقة من العالم » (٥٩) .

هذه التأكيدات التي ترتقي الى مصاف الحقائق غير القابلة للجدل ، في الايديولوجية الانعزالية تسمح لامين ناجي المنظر الاول لحزب الكتائب ، ان يعلن انه « وهم المسلمون عندما اعتقدوا ان تخلي المسيحيين عن الحماية الغربية هو تخل عن الحضارة الغربية وعن اسباب الاتصال الوجودي بالغرب ، هذا التخلي الذي يعني تنكرا لذاتها » (٦٠) .

ج ــ لبنان جزء من العالم الغربي :

عندما توحد الايديولوجية الانعزالية المسيحية بلبنان ، ثم المسيحية بالغرب يصبح من باب تحصيل الحاصل ، اعلانها ان لبنان كحضارة وككيان ، هو جزء من الحضارة الغربية ترائا ، ومن العالم « الحر » سياسيا .

وغربية لبنان ليست طارئا يحدث اليوم . بل كانت منذ كان في انظمة الحكم السياسية التي عرفها تاريخا ، « فاتصال لبنان الخلاق ، العضوي بالغرب ليس وليد الامس وليس عرضا من اعراض اي انقضاض استعماري جاءه من الخارج ، او اية مؤامرة استعمارية حيكت له في الغرب انما هو جزء لا يتجزأ من تراثه التاريخي الطويل على تقطعه ومأساويته » (٦١) .

لذلك ، فهو يصر على « الا تنقطع ، تحت اي ظرف من الظروف ، حيث انها طريقه السوي الى العالم الحر المنفتح الذي هو جزء لا يتجزأ منه بل يصر على تعميق هذه الصلات وتثميرها (٦٢) .

وحين تبسط الجبهة اللبنانية « تفسيرها لاسباب الحرب الاهلية ، تضع في مقدمتها سببين ، «مؤامرة لقطع لبنان عن تراثه التاريخي المتواصل بصورة تعسفية قهرية ومؤامرة لقطع اللبنانيين عن جذورهم في التراث الغربي المتراكم الكثيف الذي تفاعلوا معه عبر التاريخ والذي اعطوه واخذوا منه الكثير » (٦٣) .

وجلي ، هنا ، كيف تربط الايديولوجية الانعزالية بين الانتماء الى الحضارة الفينيقية والانتماء الى التراث الغربي ، اذ ترى الواحد وجها للآخر ، مكملا منطقيا له ، وكل مؤامرة تستهدف احد الانتمائين ، تستهدف الآخر بالضرورة .

٧ ــ التعددية الحضارية :

بهذه المقولة ، تجد الايديولوجية الانعزالية تتويجها الارقى ، ونهاية منطقها . في لبنان ثمة حضارتان متمايزتان تشكل كل واحدة كلا لا يتجزأ تتقابلان بلا حوار وتنتجان ثنائية في الواقع الاجتماعي والاقتصادي والايديولوجي والتربوي .

واذا ذهبنا في تقصي جذور هذه المقولة وجدنا انها تضرب عمقا في النظرية التاريخية التي قال بها المؤرخون ذوو الميول الانعزالية وبعض المؤرخين الليبراليين وخلاصتها ان تاريخ لبنان ، قديمة والحديث ، يختزل الى تاريخ « تعاقد » بين الطوائف التي تمثل مؤسسات سياسية واجتماعية وثقافية وان هذا التاريخ هو تاريخ تطور العلاقة بين هذه المؤسسات غير القابلة للاختراق من خارجها ، او التفاعل في ما بينها . فخط التطور ينفي اي انشطار او صراع داخل الطائفة ، ويؤكد تماسك بنيانها الداخلي ، وقدرتها على اعادة توليد عناصر تماسكها ، على الدوام،والتاريخ السياسي للبنان عندهم هو « تاريخ مستقيم يجعل المسيحيين في علاقة صراعية دائمة

منذ الفتح العربي الاسلامي للبنان » (٦٤) .

فالشعب اللبناني لدى كمال سليمان الصليبي ، « مجموعة من الطوائف جمع بينها حلف هو أقرب ما يكون الى العقد الاجتماعي ، وتاريخ لبنان منذ القرن الثامن عشر هو في المقام الاول ، تاريخ تطور هذا العقد الاجتماعي واثره على نمو البلاد » (٦٥) خصوصا وان الاتصال بين هذه الطوائف اقتصر « على التعاون السياسي والعسكري ، ولم يتعده الى المجتمع حيث بقيت كل طائفة بمعزل عن الاخرى » (٦٦) لتشكل بذلك مجتمعات مذهبية ذات شخصيات مستقلة تحرص عليها كل الحرص » (٦٧) او « وجودا اجتماعيا قائما بذاته الى حد كبير » (٦٨) .

يبقى ان هذا التجزؤ الطائفي يشكل ، لدى جواد بولس، « احد الثوابت التاريخية لهذا البلد » (٦٩) .

هذه الانغلاقية بين الطوائف التي انطوت على تطور كل مجموعة بصورة مستقلة ، دفعت بها الايديولوجية الانعزالية نحو اقصاها بالقول ان ثمة تعددية حضارية ، وفق المنطق الآتي :

ان اللبنانيين ينقسمون الى دينين واثنيتين (اثنية أهل السهول واثنية أهل الجبال) . ولما كان الاسلام نظاما متكاملا في الشأنين الديني والمدني ، ينشىء اسلوبا في العيش وسلما في القيم، والمسيحية كذلك فقد نجم عن ذلك ان المجموعتين الدينتين قد تميزتا واكتسبت كل واحدة منهما شخصية متماسكة ، غير قابلة للانصهار او الذوبان .

فالتعددية الاثنية ، الدينية « في الاساس ، وعلى مر التاريخ انعكست تعددية حضارية » (٧٠) واذا كانت التعددية « تتمظهر لسانيا او دينيا او مذهبيا او اثنيا او سلاليا او حضاريا ، فهي في الواقع اللبناني تمظهرت في ثنائية دينية وبالتالي حضارية (٧١) .

ومن يقر بالتعددية الحضارية يقر بأنها تطال كافة المرافق ، « فالجماعتان المتعاقدتان في لبنان مختلفتان في كل شيء : من حيث التكوين النفسي والحضاري من حيث أسلوب الحياة ، من حيث النظرة الى قيم المجتمع السياسي ودوره وأهدافه ، ومن حيث التطلعات الوطنية » (٧٢) .

يبقى ان لهذه التعددية محاسن جمة : كونها ذات قيمة حضارية وتقدمية تفوق العروبة ، وتفوق كل القيم ذات البعد الواحد (٧٣) مما يستوجب ان يكرس لها لبنان رسالته الحضارية مستقبلا فينصرف «أولا وأساسا الى تعميم التعددية » (٧٤) .

سماتها

لا شك ان قراءة كالتي فعلنا للمفاهيم الايديولوجية الانعزالية تحمل ضمنها كشفا للسمات الغالبة على هذه الايديولوجية . يبقى تنفيرها ، والقاء اضواء اشد سطوعا عليها .

تتصف الايديولوجية الانعزالية بأربع سمات ، رئيسية : العنصرية ، القمعية ، الفاشية ، الطائفية ، وان كانت هذه السمات لا تنطبق جميعها بالضرورة على كافة المفاهيم الانعزالية ، او يظهر بعضها ساطعا في مرحلة تاريخية معينة ، خافتا في اخرى .

أ ـ عنصرية ـ استعلائية

كل من ليس مارونيا بل كل من لا يشاطر اصحاب هذه الايديولوجية ايديولوجيتهم ، هو كائن دوني بهذا القدر او ذاك . انه الغريب السوقي ، الوافد على لبنان هربا « من جوع او بطالة او خوف ، حاملا معه المرض والتخلف والانحطاط الخلقي ، ساعيا الى الغدر بأبناء البلد وترويج معتقداته الهدامه « فلبنان لا يشكو الا من خطر اغراقه بهؤلاء الذين يسيئون الى سويته الحضارية ، فهو بفعل تشريع ابوابه لكل طارىء متشرد قد بات خليطا عجيبا لن يعتم أن تضيع معه هويته الاهلية وتتلاشى شخصيته الذاتية (٧٥) .

فالموقف العربي الرسمي المناهض للايديولوجية الانعزالية ، يواجه بتساؤل عنصري : لماذا يعاملنا الاشقاء والشقائق بهذه الغيرة الجارفة ؟ألأن لبنان أقل فسحة من مساحاتهم الصحراوية ؟

أم لأن اناس لبنان أقل عددا من ملايين المخلوقات في بلادهم ؟ (٧٦) .

والامة العربية نفسها ما كانت لتنهض من التكايا والدروشة والتخلف ، لولا الاسهام الماروني « التمديني » : « ان الموارنة لو اهملوا شأن العروبة ، ولو أشاحوا عن بعثها والنهضة بها أو تركوها في عزلتها قابعة في زوايا المساجد ، لكان هؤلاء الناعقون اليوم ببوق العروبة ، مازالوا في سبيل آبائهم واجدادهم خانعين في مرضاة سلطان البرين وخاقان البحرين ، تحت رحمة كرباج الباشاويش التركي » (٧٧) .

والمسلم اللبناني متخلف ، كسول ، وفير النسل ، شديد البطر ، « كل ما يقدمه هو النسل الكثير فحسب ، فليس من حقه بالتالي ان يطالب المواطنين الآخرين بتحمل اعباء ذريته ، وما يحتاجون اليه من عناية ورعاية ومدارس وتطبيب وعمل .. » (٧٨) وهو الى ذلك ، مغلق على الحضارة عدواني ، حقود ، يحمل في نفسه بداوه لاتمحى .

اليس في ذلك ما يكفي للتدليل على هذه العنصرية الجارفة ، والتي تجد ان خير ما يستحق هذا « الرعاع » هو ان يقدم نفسه يدا عاملة ، رخيصة في خدمة النظام الرأسمالي محرومة من ابسط الحقوق ، وخاضعة لارقى أشكال القهر ؟

ب ـ قمعية

عندما تكون الايديولوجية الانعزالية ايديولوجية عنصرية، استعلائية، « مالتوسية » في حلولها الاجتماعية ، تصبح قمعية بالتعريف . وقمعيتها ليست صفة تضاف اليها من خارج ، بل تنبع من مفاهيمها بالذات .

ويكفي ان نقرأ التجربة العيانية لهذه الايديولوجية ،وقد وضعت في حيز التطبيق لنكتشف اية طاقة قمعية تدميرية ، تختزنها ، قمع الطوائف الاخرى ، قمع فقراء الموارنة ، قمع اصحاب الاتجاهات الايديولوجية المغايرة قمع الاقليات في مناطق السيطرة الانعزالية وقمع اي تمايز بين القائلين بالايديولوجية الواحدة .

« يجب منع قيام كل حزب او تنظيم او وسيلة اعلام يكون اي منها تابعا لجهة غير لبنانية ، أو موجها أو مدعوما من قبلها ، وتعمل ضد كيان لبنان وديمومته وتقويض القيم الحضارية التي يؤمن بها » (٧٩) وبكلام آخر : يجب منع اية ايديولوجية لا تتوافق مع الايديولوجية الانعزالية .

ج ـ فاشية

اذ نقول بفاشية هذه الايديولوجية ، فلسنا نقصد النزعة العسكرية الطاغية التي المحنا اليها ، بل نعني الفاشية ، من حيث وظيفتها الاجتماعية

في تقديم ابناء البورجوازية الصغيرة محرقة على مذبح الراسمال الكبير ؛ باسم المصالح الموهومة لهؤلاء وباسم مفاهيم قومية عنصرية ، ومن حيث انها دعوة تقيم تلازما بين النظام الاقتصادي والكيان القومي والعرق .

فالفاشية الاوربية تجمع ، كما يقول جورج لوكاش ، وفي آن معا ، التقنية الاشد تقدما (الاميركية) والايديولوجية الرجعية الاكثر تطورا للراسمالية الاحتكارية في مرحلة الامبريالية : الايديولوجية الالمانية وهي الوسيلة ، في اللحظات الاشد لاحتدام الصراع الطبقي ، لحل مشكلات النظام الراسمالي عبر تحميلها للطبقات الوسطى ، وبايديولوجية تدعي العداء للرسمالية وتستجيب لفظيا ، للقهر الاجتماعي الذي تعانية البورجوازية الصغيرة التي تنوي استقطابها وحشدها خلفها ، في حين ان عداءها الفعلي يتجه نحو الاشتراكية العلمية وتنظيمها الطبقة العاملة، سياسيا ، ونقابيا .

من هذا القبيل ، فالايديولوجية الانعزالية في بعض تياراتها فاشية تماما (بشير الجميل خير معبر عن عدائيتها اللفظية للراسمالية) وان كانت الخصوصية اللبنانية تحتم عليها ان تكون فاشية «طائفية مسيحية» عاجزة عن توحيد البورجوازية المسيطرة يكل طوائفها حولها ، وعاجزة عن توحيد جمهور الطبقة الوسطى والبورجوازية الصغيرة ، المتنوع الانتماءات الطائفية خلفها .

ان وظيفتها الرئيسية ، في الاطار اللبناني ، تتحدد في تجنيد الطائفة المارونية برمتها ، وفقرائها في الطليعة دفاعا عن نظام الاستغلال الراسمالي الذي ينتج الازمات الاجتماعية التي تصيب الطبقات الوسطى داخل الطائفة، وذلك عبر توجيه نقمتها كطائفة نحو عدو خارجي وتحميله مسؤولية التردي في الاوضاع الاجتماعية (السوريون ـ الفلسطينيون ..) واتهامه بحمل مشروع ابادة الطائفة واخضاعها للقهر . انها تدفع فقراء الطائفة للقتال دفاعا عن النظام الطائفي ـ الطبقي القائم ، بعد ايهامهم ايديولوجيا (والايديولوجية ذات اهمية فائقة لدى اية دعوة فاشية كلحمة بديلة تجمع المصالح الاقتصادية المتضاربة) بأنهم يدافعون عن وجودهم ومصيرهم في وجه الغريب ، وليس ادل على ذلك من كون فقراء الموارنة ابناء الطوائف الاشد حرمانا هم الذين يشكلون العمود الفقري للجهاز القتالي لدى الاحزاب الفاشية .

ان فاشية الايديولوجية الانعزالية « ترمي الى صرف انظار الجماهير عن الاسباب الحقيقية لبؤسها الاقتصادي والاجتماعي ، وخلاصة ذلك ان هذا البلد يختلف عن سائر بلدان العالم بأنه معصوم عن المشاكل ، بأنه موطن معجزة اقتصادية ، وبالتالي فان اي اضطراب في حياته الاقتصادية لايعود الى اسباب داخلية ، انما هو نتاج مؤامرة خارجية . انها مسؤولية الغرباء الذين يريدون شرا بلبنان » .(٨٠)

طائفيـة

والايديولوجية الانعزالية طائفية حيث انها في منطلقها الاول ، نظرة الى الانسان تحدده وفق انتمائه الطائفي فقط وتتعاطى معه على هذا الاساس .

الانسان يولد في طائفة ، ينمو وسط مناخها ، تحدد له نظرته الى العالم، موقفه من الشؤون الاقتصادية والايديولوجية ، والناس لاينقسمون في الاصل الى فئات اجتماعية ذات مصالح اقتصادية ، تتحرك انطلاقا من هذه المصالح ، بل الى وحدات طائفية متماسكة ، تعيش انشطارا ابديا .

والطائفة وحدة سكونية متجانسة ، لاتناقض وسطها ، مصلحة فقرائها هي عينها مصلحة الراسماليين داخلها . واذا كنا توقفنا امام هذه السمات الاربع فاختيارا لابرزها لاعرضا لجميعها ، حيث ان الغيبية والمثالية الرجعية والنزعة نحو التضخيم الكاريكاتوري للذات (نظرية اللبناني الذي يطحن الصخور ...) تشكل سمات لا يجوز اغفالها .

سجال اولـى

مع المفاهيم الانعزالية

خلال عرضنا للمفاهيم التي تشكل مفاتيح الايديولوجية الانعزالية ، اجرينا سجالا مع بعضها ، وارجانا الرئيسي منها لسجال اولي نفرد له هذا الجزء الاخير ، دون ان نطمح في استيفائه .

١ ـ التعددية الحضارية

لن يتسع المجال ، هنا ، لسجال تفصيلي يدقق في الاطروحات الانعزالية حول هذه المسألة . لذلك نقتصر على العناوين العريضة .

الحضارة ، في تعريف معظم العلماء ، هي النتاج الشامل للمجتمع ككل ، تشمل المعارف اليدوية والذهنية والعادات والتقاليد والاخلاق والتنظيمات وسائر وجوه الحياة « فكل ظاهرة تدخل في حركة المجتمع هي ظاهرة حضارية تستوى في ذلك الصنائع والافكار » (٨١) .

وعندما نأخذ بهذا التعريف ، ونحاكم في ضوئه الواقع اللبناني ، نخرج باستنتاج مؤداه ان اللبنانيين ، على تنوع انتماءاتهم الطائفية ، ينتمون الى حضارة واحدة هي الحضارة العربية وان كانت كل طائفة تملك سمات خاصة بها ، هي نتاج الظروف التي رافقت تطورها التاريخي والموقع الذي احتلته على المستوى الاقتصادي ، وبعض التقاليد الاجتماعية الخاصة .

فاذا كان صحيحا ان الموارنة عرفوا على مر الاجيال بالجراة والاندفاع والنزعة الفردية ، وان ابناء الطائفتين السنية والملكية في لبنان اختلفوا عن الشيعة والدروز والموارنة في انهم سكان مدن (٨٢) واذا كان صحيحا ان كل طائفة اكتسبت خصائص تميزت بها عن سواها : من ذلك ان البيئة الجبلية جعلت من الدروز والشيعة والموارنة قوما ذوي عصبية عشائرية . ونمّت فيهم الفردية الجامحة ـ كما جعلت منهم مزارعين نشيطين (٨٣) واذا كان صحيحا ان ثمة تقاليد اجتماعية خاصة بابناء الطوائف المسيحية ، تقابلها تقاليد يختص بها ابناء الطوائف الاسلامية ، المآتم او الاعراس او المناسبات الاخرى ، غير ان كل هذه الملامح لاتبيح القول ان ثمة حضارتين متمايزتين ينتمي اليها اللبنانيون .

فاللغة واحدة ، والادب والفنون مشتركة ، والمفاهيم الاخلاقية متقاربة الى حد كبير ، والمعارف اليومية شائعة بالمقدار نفسه ، والعادات والتقاليد متشابهة ، ومتمايزة بمقدار ،والفلكلور مشترك .

ولو القينا نظرة عجلى على شهادات المستشرقين الاجانب والرحالة الذين زاروا لبنان ، لتبين لنا اجماعها على اعتبار ان ثمة عادات وتقاليد مشتركة عند جميع اللبنانيين ، او تأكيدها على ان الفروق القائمة تعود في اسبابها الى غير عامل الدين .

فالدكتور لويس لورته (١٨٣٦ ـ ١٩٠٩) الذي زار لبنان وسوريا

بين عامي ١٨٧٥ و ١٨٨٠ كتب يقول « ويقيم في ضواحي بيروت شعبان من جنسين جد متجاورين في دينين مختلفين ، استرعيا انتباه أوربا بهما أشد الانتباه ، وهما الموارنة والدروز . يؤلفان فرعين لايختلفان الا قليلا عن مجموعة العرب المتحضرة الكبرى(٨٤) .

والكتاب الذي نشرته لجنة من الادباء في عهد المتصرف اسماعيل حقي بك ، يرد فيه تحليل اجتماعي للاختلاف في العادات والتقاليد بين اللبنانيين لا صلة له بالدين ، حيث يقول « ان الباحث يمكن ان يقسم الاخلاق الى نوعين ، فاخلاق القسم الجنوبي من لبنان اشبه باخلاق العرب المتحضرين اذ يكثر فيها الدروز والمسلمون والنصارى الموارنة ، فهم يحرصون على الجوار ويتكافئون على الجميل ويحافظون على العهود والوفاء ، والكرم وعدم الصبر على الضيم ، وفيهم حدة المزاج غالبا والعناد والاباء والتحزب واخلاق القسم الشمالي يكثر فيها لين الاخلاق وخفض الجناح مع الحرص والاقتصاد والتساهل . وبامتزاج الاصول لا تكاد تميز الآن هذه الفروق في كثير من الفريقين » (٨٥) .

اذن ، ثمة تمايزات طفيفة ، عرضية تجعل منها الايديولوجية الانعزالية « سمات اثنية ثابتة لا تتبدل ، في حين انها في الواقع سمات اجتماعية لبني تتطور وتتعدل وفق العوامل البنوية الفاعلة ، وهي عوامل ترتبط بالتطور الاقتصادي ، وبمسار هذا التطور وطبيعته الانمائية ، ومدى انخراط المناطق والطوائف فيه » (٨٦) .

إن القول بهذه السمات ، وتعيين العوامل التي اسهمت في توليدها شيء ، والارتقاء بها الى مستوى الثوابت غير القابلة للتبديل واتخاذها مؤشرا على تعددية حضارية ، شيء آخر مناقض بالكلية .

يبقى سؤال ، رئيسي : هل تؤمن الايديولوجية الانعزالية فعلا بالتعددية الحضارية ؟ اي هل ترضى للمسلمين ان يعيشوا وفق القناعات التي تحددها لهم « حضارتهم » ؟ هل تؤمن بحقهم في التمايز ، وهل تتعاطى مع « الحضارتين » بالقدر نفسه من الاحترام ؟

ان الادبيات الانعزالية ، فضلا عن الممارسة، تقدم جوابا . فالتعددية الحضارية اسم مزور للتفوق الحضاري ، مقولة ايديولوجية تخفي استعلاء حضاريا وشعورا بالتفوق .

٢ ــ في الاسلام

ان اي تعاط مع الاسلام ، بوصفه نصا جامدا ، هو تعاط غير تاريخي ويقع في دائرة التزوير . فالاسلام ، اولا ، تنظيم ايديولوجي وسياسي واقتصادي ، يتلون بتلاوين الفئة الاجتماعية التى تحمله ، ويكتسب وجهه من خلال الموقع الاجتماعي الذي تحتله هذه الفئة . فهناك فهم رجعي للاسلام ، وفهم تقدمي ، في عصور الاسلام الاولى كما اليوم ، فهم « المستضعفين في الارض » ، وفهم اصحاب الرساميل ، فهم ينهض به قوة تغيير ، وفهم يقدمه اطارا لشيوع الفكر الغيبي التخديري ، الخرافي .

وما من مرة ، في التاريخ الاسلامي ، الا وعرفت التغيرات الاجتماعية والسياسية كيف تعبر عن نفسها ، من داخل الاسلام نفسه ، تطويعا للتشريع ، وطرقا لباب الاجتهاد .

والاسلام كنصوص فقهية ، وكنظرة الى العالم ، ليس مسؤولا عن التخلف ، ولا هو في اساسه . ان التفتيش عن اسباب التخلف يستحيل ان يكون خارج البحث التاريخي في البنى الاجتماعية والاقتصادية التي كانت قائمة وفي طبيعة الفئة الحاكمة ومواقعها الطبقية ،وفي علاقة العوامل الداخلية بالعوامل الخارجية المتمثلة بالاستعمار ، بشكليه القديم والحديث .

فالحضارة الاسلامية في عصورها الاولى كانت من ازهى الحضارات فهي قد افادت الغرب من علومها في شتى الميادين ، بعدما حضنت النصيب الاكبر من التراث القديم ، وامدته بالحياة . وبالتالي فلا مناص من التخلي عن هذا الازدراء الذي نبديه للشعوب الاسلامية المعاصرة لنا بحكم تضاؤل قد يكون عابرا (٨٧) .

والاسلام لم يكن « سببا للجمود او القسوة او العصبية او انقطاع التقدم الاجتماعي ولا لسجن الفكر . وفي كل حال ليس أكثر من اي ايديولوجية اخرى » (٨٨) .

ان الايديولوجية الانعزالية ، في موقفها من الاسلام ، تسترجع صدى كتابات المستشرقين في العصر الكولونيالي ، في اواخر القرن التاسع عشر ، كنا ظننا انها انطوت الى غير رجعة ، فادبيات الكسليك تكرر ، على نحو حرفي ، ما جاء على لسان ارنست رينان في محاضرات له شهيرة القاها في ٢٩ آذار ١٨٨٣ في السوربون تحت عنوان « الاسلامية والعلم » حيث حمل الاسلام مسؤولية تحويل المؤمن به الى « كائن منغلق عن العلم تماما » عاجز عن تلقي اي شيء ، او الانفتاح على أية فكرة جديدة ، واصفا الاسلام بانه « السلسلة الاثقل التي حملتها الانسانية حتى اليوم » كما تستلهم كتابات الاب اليسوعي هنري لامنس الذي لم يخطيء المستشرق السوفياتي ، بلياييف ، حين اعتبر انه « في تضاعيف كتاباته ، وفي نشاطه التعليمي ، يظهر التعصب الديني الاعمى ضد الاسلام » (٨٩) .

الى جانب هذين المرجعين المشبعين بروح التبشير الاستعماري ، تلجأ الايديولوجية الانعزالية ، وبانتقائية مقصودة ، الى ترسانة الفكر الاسلامي الرجعي ، مكتوبا باقلام سلفية ، لتؤكد رأيها في الاسلام .

ان الايديولوجية الانعزالية « تحتاج » الى اسلام متخلف يبررها ويمنحها مصداقية . ترتاح اليه بوصفه يؤمن توالدها وازدهارها ، وليس ما يكسب الايديولوجية الانعزالية لونا من المنطق ، والتماسك والمبرر التاريخي والراهن ، ويجعلها تبدو المتحدثة الوحيدة بلغة الواقع ، اكثر من اسلام يعيش ، ركودا فكريا ، ويقدم نفسه بؤرة لتوالد تيارات من التعصب والسلفية .

وما يصح في المجال الايديولوجي ، يصح بالمقدار نفسه في المجال السياسي ، حيث تبحث الجبهة الانعزالية عن معادل اسلامي لها ، يوفر سندا لايديولوجيتها الطائفية .

٣ ــ في اضطهاد المسيحيين

ليس صحيحا ، من الوجهة التاريخية المحضة ، ان التاريخ العربي هو تاريخ علاقة صراعية دائمة بين الفاتحين العرب والمسيحيين في المشرق العربي ، وتاريخ اضطهاد المسيحيين بفعل انتمائهم الديني فحسب .

فالمؤرخون الانعزاليون انفسهم لم يقدموا على اطلاق حكم قيمي مطلق كهذا ، وعمدوا الى التمييز بين عصر اسلامي وآخر فاتهموا بعض الخلفاء باضطهاد الاقليات المسيحية ، وامتدحوا تسامح البعض الآخر ، ومؤلفات جواد بولس ، فيليب حتي ، يوسف السودا ، وكمال سليمان الصليبي تحمل عشرات الادلة على ذلك .

ثم ان كتابات جامعة الروح القدس في الكسليك نفسها ، تقرّ في بعض المواضع ، « بأن الصفة الحضارية الاولى للموارنة تقوم فعلا على قبولهم العيش المشترك مع الطوائف بلا استثناء ، والنجاح الفعلي لتجربتهم هذه ، بالرغم من وجود بعض الانتكاسات التاريخية المفتعلة » (٩٠) .

فالمسيحيون ، في كثرتهم ، لم يقاوموا الفتح العربي ، بدليل « ان الغساسنة على حدود سوريا واللخميين على حدود العراق ، وهؤلاء من القبائل العربية ، قد سهلوا مهمة الفاتحين » (٩١) ، وان « سكان لبنان وهم ساميون ، وسكان مصر ، وهم حاميون ، اعتبروا العرب الفاتحين من ابناء جنسهم يربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام الغاصبين » (٩٢) .

ففي معركة اليرموك ، كما يؤكد اسد رستم « انسحبت القبائل المسيحية من معسكر الروم وامتنعوا عن القتال وجاء هذا الانسحاب في صالح المسلمين » (٩٣) وفي قنسرين شرق انطاكية ، يؤكد فؤاد قازان ان بعض آل تنوخ وصالح قد اسلموا « حتى ان انطاكية لم تقاوم بل بقيت مسيحية وصالحت المسلمين مقابل الجزية » (٩٤) ويذهب بلييابيف الى القول « ان القبائل العربية التي نزحت عن الجزيرة العربية قبل الاسلام واستوطنت سوريا واعتنقت النصرانية دينا ، بادرت الى الاشتراك في المعارك الى جانب العرب الفاتحين ، ونخص بالذكر القبائل المنتصرة في سوريا وفي شرقي الاردن ، والتي لعبت دورا عسكريا وسياسيا هاما في القرن الاول للهجرة (٩٥) .

اما الاضطهاد الذي لحق ببعض المجموعات المسيحية في حقب تاريخية متفرقة ، فلم يلحق بها وحدها ولا اصحابها بسبب انتمائها الديني فقط .

فالمتوكل شمل اضطهاده ، كافة الملل من المعتزلة الى الفاطمية ، وهو من دمر ضريح الحسين في كربلاء والمماليك قتلوا من الاسماعيلية والنصيرية والشيعية عددا كبيرا ، فضلا عن ان الحملات المملوكية على كسروان ، وفي القرنين الثالث والرابع عشر ، ابادت آلافا من الشيعة والدروز فكان بدء الجلاء الاسلامي عن منطقة كسروان باتجاه المقاطعات الجنوبية .

والمراجع التاريخية ،من جهتها ، تثبت ان واحدا من الاسباب الرئيسية للحملات التي وجهت ضد بعض التجمعات المسيحية ، كان اتهام الدولة الاسلامية لهابمساندة الصليبيين وامدادهم بالعون المادي والبشري، وبما يجعل الحملة لونا من الوان العقاب السياسي ينزل بمجموعة دينية بفعل مواقفها السياسية في الاساس .

هل نريد ، من ذلك ، ان نقول ان المسيحيين لم يتعرضوا ،خلال الحكم الاسلامي ، لأي اضطهاد ؛ او ان مشكلة الاقليات ، في الوطن العربي، مشكلة مفتعلة ولا اساس لها تاريخيا او حاضرا ؛

كلا ليس ذلك قصدنا ، ولن نرد على قراءة ايديولوجية للتاريخ بقراءة ايديولوجية معاكسة . بل نريد ان نقول امرين :

١ ــ ان الدونية السياسية التي عاشها المسيحيون ، خلال عصور الحكم الاسلامي ، بوصفهم من اهل الذمة ، وفي كنف الاسلام وحمايته ، يجب الا تنفي مجموعة من الحقائق ،في طليعتها انالتسامح الذي ابداه الحكم الاسلامي حيال اهل الذمة ، شكل موقعا متقدما ، بمقاييس تلك الحقبة التاريخية التي لا يجوز محاكمتها وفق معايير حديثة ، ومطالبة انظمة الحكم التي قامت يومها بتطبيق مفاهيم في الديمقراطية السياسية والاجتماعية لم تكن شائعة ولا معروفة ، وما كان ممكنا لها ان تسود ، اذا اخذنا في الاعتبار درجة التطور السياسي التي عرفتها تلك المجتمعات وانظمة السلطة فيها .

٢ ــ ان الحل الذي تقدمه الايديولوجية الانعزالية لمشكلة الاقليات ، لن يكون من شأنه الا تأزيم اوضاعها وتعريضها لالوان من القهر والاضطهاد.

نعم ان ثمة مشكلة فعلية هي مشكلة اقليات مذهبية وعرقية تحفظ في ذاكرتها الجماعية ذكريات اضطهاد عرفته او تمييز عانته وجعلها ، في المحصلة الاخيرة تعيش دونية سياسية :

ثمة اقليات غير منخرطة في نسيج الحياة العربية ، تعيش منعزلة داخل قناعاتها السياسية ، يتطلع بعضها ضمنا الى حماية اجنبية ، تعيش مركبات وعقد الخوف من الطغيان عليها ، تسعى الى ضمانات سياسية ومادية تميزها ، وليس جائزا في اي حال تجاهلها او اعتبار مخاوفها بلا اي اساس مادي او ضربا من الهلوسات والاوهام الجماعية ليس الا .

لكن « الحل » الذي تعرضه الايديولوجية الانعزالية ، هو بالتعريف حل انتحاري ، يعمق المشكلة يعيد انتاجها على نحو اوسع ، ويهدد المصير المادي للاقليات نفسها :

ــ ترد على الخوف في اوساط الاقليات ، بعرض مشروع التحكم الاقلي ، القمعي عبر القوة العسكرية المحضة ، وعبر حكم المؤسسات الحافظة والمكرسة لهذا التحكم ، وهي بذلك تقدم اقصر الطرق لتجدد المذابح الاهلية ولتعريض الاقليات لاشكال من القهر والابادة .

ان التناحر العدائي مع المحيط لا يحمل خلاصا للاقليات ، بل لعله قاعدة توليد مذابح اهلية ، وبوتيرة منتظمة . واذا كان من امثولة لتاريخ الاقليات في المشرق العربي ، فهي هذه : كلما تمايزت الاقلية وشاءت في تمايزها ان تحمي نفسها وتحفظ مصيرها كلما عرضت نفسها لمزيد من احتمالات القهر . كلما طالبت بحماية الاجنبي ، وربطت مصيرها به كلما باتت اكثر انكشافا لانتقام الاكثرية ، وكلما عززت فرص قمعها .

ــ تجنيد الاقلية للدفاع عن النظام الطائفي ــ الطبقي الذي ينتج ازمتها ، ولتعطيل فرص قيام نظام ديمقراطي علماني يحمل وحده فرصة حل مشكلة الاقلية ، اذ يرفع عنها صفة الاقلية اساسا ويحرر المجتمع من قانون الصراع بين اقلية واكثرية طائفتين ، مؤسسا لقوانين صراع غير طائفية .

ــ تعرض عليها الخيانة الوطنية والقومية ، عبر الارتباط باسرائيل كسبيل وحيد الى الاستقواء على المحيط الاكثري ، بما يوحد موقع الاقلية المسيحية مع العدو ، ويجعل منها امتدادا له في داخل المجتمعات العربية . وعندما تضع الاقليات المسيحية نفسها في هذا الموقع ، فان في ذلك دعوة مفتوحة ليمارس بحقها الاضطهاد السياسي والديني ولتجري معاملتها بوصفها اقلية خائنة او تنطوي على احتمالات خيانة دائمة .

الى جانب تعميقها مشكلة الاقلية المسيحية وتحويلها الى عنصر تفجير دائم ، فان الايديولوجية الانعزالية ، موضوعة في حيز التطبيق تؤول الى تفتيت البلد وتقسيمه على كافة المستويات ، فضلا عن انها عامل الغاء لاستقلاله ، وتحويل له الى جرم صغير في فلك الكيان الاسرائيلي ، معدوم الارادة الوطنية خاضعا للاحتلال الفعلي .

انها ، مرتسمة على ارض الواقع ، فعل تدمير للوطن حتى تبقى الطائفة ، وفعل استدعاء للانتداب فيما هي تدعي صونا للاستقلال .

ولكن اذا كان الحل الذي تعرضه الايديولوجية الانعزالية تدميرا الى هذا الحد ، فما هو الحل البديل الذي توفره الانظمة العربية القائمة لمشكلة الاقليات المتزايدة حدة في الوطن العربي ؟ بل وقبل ذلك ينهض سؤال اسبق : اليس ثمة من مسؤولية تقع على عاتق الفكر السياسي العربي السائد في تقديم كل المبررات لانتشار الايديولوجية الانعزالية ونجاحها في تضليل قسم من الجماهير المسيحية ؟

بلى . لنخرج ، هنا ، من دائرة السجال الاحادي الجانب مع الايديولوجية الانعزالية لنلقي ضوءا على الايديولوجية الاسلامية السائدة ، وعلى الواقع الراهن الذي تعيشه حركة التحرر العربية ، واثر ذلك كله في توفير المناخ المناسب لتعميم هذه الايديولوجية على شطر من ابناء الطائفة المارونية .

ان مشكلة الاقليات ، في العالم العربي ، هي اولا جزء من ظاهرة عدم الاندماج القومي في المجتمعات العربية ، هذه المجتمعات التي تستنقع في انشطاراتها المذهبية والاقليمية والعشائرية والعرقية السابقة على الوحدة القومية . ثمة تجزئة داخل كل قطر عربي هي اشد خطرا من التجزئة الاستعمارية للامة العربية واكثر مدعاة وتطلبا لمشروع وحدوي يحقق الانصهار القومي ويخرج الامة من تبعثرها وتناثرها .

ومشكلة الاقليات ، ثانيا ، هي نتاج نقص حاد في الديمقراطية السياسية والاجتماعية في المجتمعات العربية ، تلك الديمقراطية التي لا يجوز اعتبارها مطلبا اقليويا كما يتبادر الى البعض ــ بل حاجة من الحاجات الحيوية للاكثرية نفسها ، حتى تلعب دورها الفعلي في المعركة القومية ، حتى تستعيد حضورها ، بعدما خضعت طويلا للقهر والتهميش .

ومشكلة الاقليات ، ثالثا ، هي واحدة من نتائج تخثر المعركة القومية ضد الاستعمار وسطيتها ، ترددها ، مراوحتها ، الامر الذي لم يستدع لدى الانظمة العربية التي تقود هذه المعركة انفتاحا جديا وشاملا على الاقليات العرقية والمذهبية ، استنفارا لها ، وتوظيفا لطاقاتها في المعركة الامر الذي استبقاها خارج دائرة المواجهة .

لم ينهض ذلك النظام العربي الذي ، اذ يخوض مواجهة جذرية وقاطعة مع الامبريالية ، يجد نفسه ملزما باطلاق حركة ديمقراطية سياسية واجتماعية تطال كافة طوائف المجتمع وفئاته ، توفر حرية التنظيم السياسي والنقابي لاوسع الجماهير ، وتستند اليها في خوض المواجهة المديدة .

وبهذا المعنى فان انتعاش الايديولوجيات السلفية لدى الاقليات او بروز مشاريع سياسية معادية للطموح العربي الوطني لدى بعضها . هو التعبير الأجلى عن ازمة حركة التحرر العربية نفسها ، يكشف وسطيتها الايديولوجية ، مساومتها مع الايديولوجية الرجعية . وتعايشها معها .

الى جانب ذلك كله ، فان مشكلة الاقليات تتغذى من سيادة وعي ايديولوجي سلفي لدى الجماهير الاسلامية ، كما لدى العديد من تنظيماتها السياسية . ان السلفية واللاعقلنة والظلامية السائدة ودخول الامة عصر التكايا والدروشة ، وانهزام الاتجاهات الليبرالية ، التحديثية هي عناصر تعميم للايديولوجية الانعزالية ، تجعلها تبدو وكأنها المعبرة الفعلية عن مصالح ابناء الطائفة المارونية .

في مواجهة هذا الواقع ، اين يقع الخلاص الفعلي ؟

ينبغي الاعتراف ، اولا ، بوجود مشكلة راهنة هي مشكلة الاقليات . كانت قائمة على امتداد التاريخ العربي الحديث ، وهي اليوم اشد راهنية.

وينبغي ، ثانيا ، تولد قناعة بأن حل مشكلة الاقلية يقع في يد الاكثرية . ان الاقلية لا تحمل خلاصا لمشكلتها من داخلها .

وسلوك الاكثرية حيال الاقلية يحدد ، بدرجة كبيرة ، الخيار السياسي الذي تأخذ به هذه الاخيرة ، ويشكل اما مدخلا الى الحل ، او الى مزيد من التأزم .

تأسيسا على هذه المنطلقات فان الحل الاخير لمشكلة الاقليات يتمحور حول مفصلين :

ــ الاخذ بالديمقراطية السياسية والاجتماعية والاقتصادية بديلا عن القمع ، عاريا او مستترا ، بوصفها صمام الامان الوحيد لمنع الاقتتال والاحتكام الى العنف واطار للتطور .

ــ اعتماد العلمنة بديلا عن الانظمة الطائفية او شبه الطائفية ، اعتبارا منا بأن العلمنة الكاملة هي الكفيلة بمنع انتاج عوامل التمايز الطائفي ، وتوحيد المجتمع توحيدا قاعديا يلغي البؤر الاجتماعية التي تتولد فيها الطائفية .

ان العلمنة ، اذ تقيم الاعتبار للمواطنين بوصفهم مواطنين فقط ، لا ابناء طائفة ، اكثرية كانت ام اقلية تحرر الاقليات من توجسها ، وتقطع الطريق على اي طغيان اكثري .

بالديمقراطية والعلمنة نخرج من « كونفدرالية الطوائف » نحو المجتمع الموحد ، حيث تذوى الايديولوجيات ــ الماضوية ، اتسمى اصحابها كتائب او اخوانا للمسلمين ، او جماعة تكفير وهجرة .

المراجع :

(١) ز . ي هرشلاغ . مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط ، دار الحقيقة بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٢٧ .

(٢) المرجع نفسه . ص ٣٧ .

(٣) د . وجيه كوثراني . اشكالية الدراسة التاريخية للثقافة الوطنية . دراسة منشورة في كتاب « الثقافة الوطنية في لبنان على خط المواجهة » دار الطليعة ١٩٧٩ ص ٢٥ .

(٤) فيليب حتي . تاريخ لبنان ، دار الثقافة . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٧٢ . ترجمة انيس فريحة ص ٤٤٤ .

(٥) جواد بولس . تاريخ لبنان . دار النهار للنشر ١٩٧٢ ص ٢٥٢ .

(٦) د . وجيه كوثراني . لبنان ، تكونه التاريخي في اطار التجزئة الاستعمارية للمشرق العربي . دراسة منشورة في كتاب « لبنان الحضارة الواحدة » بيروت ١٩٧٧ ص٦٥ .

(٧) د . شوفالييه . مجتمع جبل لبنان ابان الثورة الصناعية في اوروبا . باريس ١٩٧١ ص ١٩ .

(٨) د . نقولا زيادة . ابعاد التاريخ اللبناني الحديث ــ جامعة الدول العربية ، بيروت ١٩٧١ ص ١٥٧ .

(٩) المرجع نفسه ص ١٤٥ .

(١٠) البرت حوراني . الفكر العربي في عصر النهضة . دار النهار للنشر . بيروت ١٩٧٧ ص ٧٩ .

(١١،١٢،١٣) د . نقولا زيادة . ابعاد التاريخ ... مرجع مذكور ص ١٦١ .

(١٤) د . كوثراني . اشكالية الدراسة التاريخية ... مرجع مذكور ص ٢٩ .

(١٥) عفيف فراج . الادب في الثقافة الوطنية . دراسة منشورة في كتاب « الثقافة الوطنية في لبنان على خط المواجهة » مرجع مذكور ص ١٧٠ .

(١٦) للتوسع في هذا المجال يمكن مراجعة النتاج الادبي المنشور في ملفات « العمل » الشهرية (جورج شامي ، جوزف الهاشم ...) و « رسائل من خلف المتراس » لمصطفى جحا « وابو لبنان وسنتين حرب » ليونس الابن ، (واشتعلت النار » لجوزف اليان ، « وحرب المراية » سلسلة منشورات دار « العمل » كما يمكن مراجعة مقالة جورج ناصيف« تجليات الايديولوجية الطائفية في الثقافة » منشورة في « الثقافة الوطنية في لبنان على خط المواجهة » مرجع مذكور ص ٩٥ ـ ١٠٣ .

(١٧) ويلهام وليش . ما الوعي الطبقي . دار الطليعة . بيروت ١٩٧٤ ص ـ ٥٠ .

(١٨) بطرس ضو . تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري دار النهار للنشر بيروت ١٩٧٠ جزء ـ ١ ـ ص ٣٩٠ .

(١٩) المرجع نفسه جزء ٥ ص ١٣ .

(٢٠) المرجع نفسه . جزء ١ ص ٣٩١ .

(٢١) المرجع نفسه . جزء ١ ص ٣٨٩ .

(٢٢) جواد بولس . تاريخ لبنان . مرجع مذكور ص ٢١٥ .

(٢٣) المرجع نفسه ص ٢١٥ .

(٢٤) بطرس ضوء . تاريخ الموارنة ... جزء ٦ ص ٣٩٨ .

(٢٥) المرجع نفسه ص ٣٩٨ .

(٢٦) المرجع نفسه ص ٤٠١ .

(٢٧) المرجع نفسه ص ٣٩٩ .

(٢٨) المرجع نفسه ص ٤٠٥ .

(٢٩) عفيف فراج . دراسات يسارية في الفكر اليميني . دار الطليعة . بيروت ١٩٧٠ ص ٢٠ .

(٣٠) محلل العمل السياسي مقررات خلوة زغرتا بين التكتيك والستراتيجية « ملف العمل الشهري » رقم ٩ ـ ١٩٧٨ ص ١٣٦ .

(٣١) جواد بولس . تاريخ لبنان ص ٢٢٣ .

(٣٢) المرجع نفسه ص ٢٠ .

(٣٣) فيليب حتي . تاريخ لبنان . ص ٩ .

(٣٤) الاسلام السياسي ، وهوية لبنان ، سلسلة « القضية اللبنانية » رقم ١٤ آب ١٩٧٦ ص ٤ .

(٣٥) فيليب حتي . المرجع نفسه ص ٨ .

(٣٦) شارل مالك . لبنان في ذاته . مكتبة التراث اللبناني . بيروت ١٩٧٣ ص ١١ .

(٣٧) لبنان المستقبل من الانهيار السياسي الى الانشطار النفسي والجغرافي ـ سلسلة « القضية اللبنانية » رقم ١٢ ص ٢٥ .

(٣٨) المرجع نفسه ص ٨ .

(٣٩) انطوان نجم . مناقشات ندوة « الانتفاضة اللبنانية » ملف العمل الشهري رقم ١ آذار ١٩٧٧ ص ١٧٩ .

(٤٠) دراسة تحليلية . لمواقف المسلمين اللبنانيين من الحرب اللبنانية ـ الفلسطينية منذ نيسان ١٩٧٥ « سلسلة القضية اللبنانية » رقم ١٧ ص ١١ .

(٤١) ورقة الكتائب في خلوة سيدة البير . ملف العمل الشهري رقم ١ آذار ١٩٧٧ ص ٨٤ .

(٤٢) للتوسع في هذا المجال راجع مذكرة المؤتمر الدائم للرؤساء العامين للرهبانيات اللبنانية والرابطة المارونية الى النواب ٧٥/١١/٣ سلسلة القضية اللبنانية .

(٤٣) لبنان المستقبل من الانصهار ... مرجع مذكور ص ٣٠ .

(٤٤) الاسلام السياسي وهوية ... مرجع مذكور ص ٤١ .

(٤٥) المرجع نفسه ص ٣٠ .

(٤٦) امين ناجي . شرعة من اجل ميثاق وطني جديد . المطبعة الحديثة . بيروت ١٩٧٩ ص ٢١ .

(٤٧) تقرير الامانة العامة في خلوة دار « العمل » الكتائبية . ملف « العمل الشهري رقم٤» حزيران ١٩٧٧ ص ٧٠ .

(٤٨) تقرير بيار الجميل في مؤتمر حزب الكتائب الـ ١٧ المنعقد في برمانا ١٩٧٤ ملف العمل الشهري رقم ١ آذار ١٩٧٧ ص ١٨ .

(٤٩) فؤاد افرام البستاني « مار مارون » منشورات المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٥ ص٧١

(٥٠) بطرس ضو . تاريخ الموارنة .. مرجع مذكور ص ٤٥٠ .

(٥١) الاب بولس نعمان . ندوة المارونية ولبنان ١٩ ايار ١٩٧٤ في معهد الرسل منشورة في النشرة التي تصدر عن اللجنة الاسقفية لوسائل الاعلام الاجتماعي في لبنان رقم ١٠ ـ ١٥ حزيران ١٩٧٤ ص ١٠ .

(٥٢) المرجع نفسه ص ١٠ .

(٥٣) امين ناجي . شرعة من اجل ... مرجع مذكور ص ٣٩ .

(٥٤) شارل مالك . ندوة المارونية ولبنان مرجع مذكور ص ٢٧ ـ ٢٩ .

(٥٥) كمال سليمان الصليبي . الموارنة : صورة تاريخية ص ٢٥ .

(٥٦) ادوار حنين . ندوة المارونية ولبنان مرجع مذكور ص ٢٠ .

الثقافة الجديدة

مجلة فكرية ابداعية عربية

تصدر في المغرب

تشرف عليها جماعة من المثقفين التقدميين المغاربة

المدير المسؤول : محمد بنيس

الاشتراك في الدول العربية وأوروبا ٥٠ درهما أو ما يعادلها

اشتراك المؤسسات المساندة ١٥٠ درهما أو ما يعادلها

العنوان : ص.ب ٥٠٥ المحمدية ـ المغرب

(٥٧) مذكرة الجبهة اللبنانية الى الشخصيات السياسية العالمية . ملف العمل الشهري رقم ٣ ايار ١٩٧٧ ص ٧٢ .

(٥٨) محلل العمل السياسي . مقررات قمة زغرتا ... مرجع مذكور ص ١٣٦ – ١٣٧ .

(٥٩) بيار الجميل . مقابلة منشورة في ملف العمل الشهري رقم ٤ حزيران ١٩٧٧ ص١٦٠

(٦٠) امين ناجي . شرعة من اجل ... مرجع مذكور ص ٣٠ .

(٦١) شارل مالك . لبنان في ذاته . مرجع مذكور ص ١٥ .

(٦٢) مذكرة الجبهة اللبنانية الى ... مرجع مذكور ص ٧٦ .

(٦٣) المرجع نفسه ص ٧٣ .

(٦٤) سليمان تقي الدين . الثقافة الوطنية في لبنان على خط المواجهة ، مرجع مذكورص٧٠

(٦٥) كمال سليمان الصليبي . تاريخ لبنان الحديث . دار النهار للنشر ١٩٧٨ ص ٢٨ .

(٦٦) المرجع نفسه ص ١٤ .

(٦٧) شارل مالك . لبنان في ذاته . مرجع مذكور ص ٦٠ .

(٦٨) محلل العمل السياسي . لبنان الجديد . منشورات دار العمل ١٩٧٦ ص ٤٦ .

(٦٩) جواد بولس . مرجع مذكور ص ٣٣٧ .

(٧٠) امين ناجي . المناطقية عبر اساس التنوع في الوحدة . ملف العمل الشهري رقم ١ آذار ١٩٧٧ ص ٢١٤ .

(٧١) امين ناجي . شرعة من اجل ... مرجع مذكور ص ٣٠ .

(٧٢) الاسلام السياسي وهوية لبنان . مرجع مذكور ص ٤٢ .

(٧٣) المرجع السابق . ص ٢٥ .

(٧٤) امين ناجي . شرعة من اجل ... ص ٥٧ .

(٧٥) الواقع اللبناني القائم وموقف الرهبان اللبنانيين منه . منشورات الامانة العامة لمؤتمر الرؤساء العامين للرهبانيات اللبنانية نيسان ١٩٧٥ ص ٤ .

(٧٦) يوميات لبناني عتيق . ج ٤ ص ١٠٧ .

(٧٧) المرجع نفسه ج ١ ص ١٠٦ .

(٧٨) نظام سياسي مقترح للبنان الجديد . سلسلة القضية اللبنانية ص ٥٣ .

(٧٩) مذكرة لجنة البحوث اللبنانية سلسلة « القضية اللبنانية » ١٩٧٥/١٢/١١ .

(٨٠) فواز طرابلسي . ملامح الايديولوجية الطائفية ، الثقافة الوطنية ... مرجع مذكور ص ٧٨ .

(٨١) د . معن زيادة . مدخل لدراسة لبنان والمسالة الحضارية . منشورة في كتاب « لبنان الحضارة الواحدة » . منشورات النادي الثقافي العربي ص ١٢ .

(٨٢) د . كمال سليمان الصليبي . تاريخ لبنان الحديث . مرجع مذكور ص ٢٥ .

(٨٣) المرجع نفسه ص ٢٤ .

(٨٤) د . لويس لورتة . مشاهدات في لبنان . تعريب فؤاد افرام البستاني . منشورات دار المكشوف ايلول ١٩٥١ ص ٦١ – ٦٢ .

(٨٥) لبنان مباحث علمية واجتماعية . مجموعة من الادباء . نظر ووضع مقدمته فؤاد افرام البستاني . منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٩ الجزء الاول ص ١٦٠ .

(٨٦) النزعات السياسية في لبنان . وكالة الانباء الوطنية . مكتب الابحاث والدراسات ص ٦٩ .

(٨٧) كلود كاهن . تاريخ الشعوب الاسلامية . دار الحقيقة . بيروت ١٩٧٢ ص ٦ .

(٨٨) مكسيم رودنسون . الماركسية والعلم الاسلامي . دار الحقيقة بيروت ١٩٧٤ ص٩٩ .

(٨٩) ي . بليانيف . العرب والاسلام او الخلافة العربية ، تعريب د . انيس فريحة . الدار المتحدة للنشر . بيروت ١٩٧٢ ص ٤١ .

(٩٠) لبنان والهوية العربية – لبنان والعلمانية . سلسلة « القضية اللبنانية » رقم ١٣ ص ٣ .

(٩١،٩٢) فيليب حتي . لبنان في التاريخ ص ٢٩ .

(٩٣) اسد رستم . كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى . المجلد الثاني ص ٣٢ .

(٩٤) فؤاد قازان . لبنان في محيطه العربي . دار الفارابي ١٩٧٢ ص ١١٧ .

(٩٥) ي . بليابيف . العرب والاسلام ... مرجع مذكور ص ١٩٢ .

صدر حديثا

روايات وقصص

د. سهيل ادريس

في طبعة جديدة :

الحي اللاتيني

(الطبعة السابعة)

الخندق الغميق

(الطبعة الثالثة)

اصابعنا التي تحترق

(الطبعة الثالثة)

قصص سهيل ادريس

في جزئين :

اقاصيص اولى

اقاصيص ثانية

منشورات دار الآداب